ملامح من ثورة الصلحاء في جبال غمارة- زيطان الغماري نموذجا-

الباحث. المودن موسى-تطوان – المغرب

ملخص: أنتجت الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مجموعة من الظواهر الجانبية المحتدمة في بلاد المغرب، والتي تتعلق بالخروج عن السلطة المركزية ونظامها في التسير والحكم، وقد ارتبطت هذه الظواهر دائما باستفحال الأزمات الجانبية، من قبيل موت السلطان، أو تنازع الإخوة على مقاليد الحكم أو توالي سنوات الجفاف والقحوط لعدة سنوات، وفي هذا الإطار نود أن نسلط الضوء على قضية ثورة الصلحاء في شمال المغرب الأقصى وجذورها التاريخية وأسبابها الأساسية، والظروف التي أنتجت وساهمت في اتساع نطاق وجودها. وقد خصصنا الحديث في هذا الإطار عن شخصية غمارية مصلحة، ساهمت بشكل كبير في رسم ملامح الثورة القبلية في شمال المغرب خلال البدايات الأولى للقرن التاسع عشر، إنه شخصية زيطان الخمسي وثورته التي استفحلت في ثبائل غمارة ولم تكن لتطفأ لولا الجهود الكبيرة التي بدلت من طرف السلطان وجيشه.

الكلمات المفتاحية: القبائل الغمارية، ثورة الصلحاء، زيطان الخمسي، المولى سليمان.

Abstract: The social, economic and political conditions produced a series of side-effects in Morocco, which are related to the departure from central authority and its system of governance. These phenomena have always been linked to the outbreak of side crises, such as the death of the sultan, the brotherhood of the brothers, For years.

In this context, we would like to highlight the issue of the Salha revolution in northern Morocco, its historical roots and causes, and the conditions that have produced and contributed to its expansion. In this context, we have devoted ourselves to the character of Gumaria interest, which contributed greatly to the portrayal of the tribal revolution in the north of Morocco during the early days of the nineteenth century. It is the figure of the zitan ilkosi and his revolution, which intensified in the stupidity of the cave and would not have been extinguished without the great efforts exerted by the Sultan And his army.

Key words: Tribal gomara, the revolution of the Salhae, Zitan elkomsi, Mulla Solom.

مقدمة:

تخلل بداية القرن التاسع عشر الميلادي مجموعة من الاختلالات الداخلية في بلاد المغرب، كان لها أثر واضح على استمرار الضعف في الداخل وانعكاسه على صورة المغرب في الخارج، مما جعل من تكالب القوى الاستعمارية على بلاد المغرب أمر وقت ليس إلا.

وأمام الضعف الداخلي الناتج عن تفكك الجيوش المغربية واشتداد المواجهات القائمة بين الطامحين للعرش من جهة والقبائل الثائرة بين الفينة الأخرى من جهة أخرى، سيكون من الصعب إعادة توحيد المغرب كما كان في فترة المولى عبد الله وغيره، مما سيضطر المعتلين للعرش إلى التركيز على إطفاء نيران ثورات الداخل أكثر من الانكباب على إطفاء نيران التأمر والدسائس من الخارج.

وفي ظل هذه الأوضاع المضطربة الخطيرة كان قيام الثورات العارمة بعد موت أي سلطان أمرا مسلما به، لطبيعة الحكم وتقلدية بناء الجيش المغربي، فكان من بين الثورات التي لحقت اعتلاء المولى سليمان العلوي سدة للحكم قيام ثورة المصلح "زيطان الخمسي الغماري"، الذي ثار نتيجة طغيان القائد الغنيمي على القبيلة وقتله للقائد الصريدي، فكان بذلك بداية لثورة عمت شمال المغرب من أجواز تازة إلى أجواز طنجة.

أولا :غمارة تاريخ من الثورة والتألق.

نبذة مختصرة عن قبيلة غمارة:

تقع قبيلة غمارة في الشمال المغربي، وبالضبط في الجزء الشمالي لإقليم شفشاون، الذي يتأطر ضمن جهة طنجة تطوان الحسيمة، وتشغل القبيلة جزء مهما من النفوذ الترابي للإقليم، إذ تشكل حوالي الأربعين في المئة من مجموع مساحته الكلية، وغمارة هذه تكتل قبيلي قديم برزت أدواره الطلائعية مع بداية الفتح الإسلامي، وتدرجت هذه الأدوار مع تطور بنا الدولة المغربية عبر الدول التي تعاقبت على حكمه.

غمارة في القديم: تمتد قبيلة غمارة قديما على مساحة كبيرة جدا، تبدأ من جبال الريف بساحل البحر من لدن غساسة فبادس فبكليس فتطاوين فسبتة فالقصر إلى طنجة، خمس مراحل أو أكثر أوطنوا جبالا شاهقة اتصل بعضها ببعض سياجا بعد سياج خمس مراحل أخرى من العرض، إلى أن يتخطى بسائط قصر كتامة ووادي ورغة من بسائط المغرب(ابن خلدون، دس، ص280).

وهذا الوصف الدقيق للمنطقة يبرز لنا المساحة التقريبية للقبيلة خلال الفترة المرينية، والتي كانت تتركز بين سهل النكور بالريف، وبين جبال القصر الكبير بقصر كتامة، وهذا فيما يخص المساحة الطولية، أما من حيث المساحة العرضية، فالقبيلة كانت تبدأ من الساحل المتوسطي للشمال المغربي، وتنتهي عند حدود نهر ورغة، من بسائط فاس وغيرها.

وهي مساحة شاسعة كبيرة، تضم عدة تكتلات قبلية، تنتمي إلى أصول مختلفة(عربية، أمازيغية، إفريقية) شكلت أساس امتداد النفوذ الترابي للقبيلة الغمارية.

غمارة في الفترة الاستعمارية (سنة 1934م): كانت الناحية الغمارية أو مقاطعة غمارة خلال الفترة الاستعمارية تحتوي على 13 قبيلة، منها تسع قبائل غمارية، وأربع كانت تنسب إلى غمارة من الناحية الإدارية فقط، وهي على الشكل التالي(محمد داود، 2008، ص355).

- قبائل غمارة أو القبائل الغمارية: بني زيات - بني بوزرة - بني جرير - بني منصور - بني سلمان - بني زجل - بني خالد - بن رزين - بني سميح.
- القبائل التي كانت تنسب من الناحية الإدارية: 1: الأخماس - بني يحمد – غزاوة – متيوة.
وتغطي هذه القبائل مساحة جغرافية مهمة، تضم النفوذ الترابي لإقليم شفشاون حاليا، وما كان يطلق عليه في فترة الاستعمار بمقاطعة غمارة، إلا أنه حاليا لم تبقى ولا جهة في شمال المغرب تنسب إلى المجال القبلي، بل صارت كل جهة تسمى على حسب كبريات المدن فيها، كجهة طنجة، أو تطوان، أو شفشاون أو الحسيمة، في إطار محاولة محو الأثر الاستعماري من الجذور.

أنواع الثورة في جبال غمارة:

كثيرة هي الآثار التي تركتها القبيلة الغمارية في تاريخ المغرب، وخاصة حينما نتحدث عن الفترات الأولى من عمر الدولة المغربية (الفتح الإسلامي، الأدارسة، المرابطون، الموحدون).

وقد استمرت الثورات بين ظهران هذه الجبال وإلى فترات متأخرة، فكانت تأخذ في أغلبها أشكالا اجتماعية، رفضا للضرائب التي كانت تثقل كاهل الساكنة الفقيرة أصلا، وفي أحيان أخرى أشكالا مختلفة كثورة الإصلاح الديني التي قادها ابن مشيش، وكثورة حاميم الذي دعا إلى دين جديد أيضا، وعلى كل فإن المشترك بين هذه الثورات كان الخروج عند نفوذ ووصاية السلطة المركزية، وفي بعض الأحيان كان إعلانا عن كيان جديد مستقل.

وهذه أهم وأبرز أنواع الثورات التي قامت بين ظهران هذه الجبال:

الثورة الاجتماعية: كثيرة هي الثورات التي قادتها القبيلة الغمارية للتنديد بغلاء الأسعار وثقل الضرائب المفروضة، لهذا نجد السلاطين وخاصة العلويين يقومون بحملات تأديبية لهذه القبائل من أجل إجبارها على ما في ذمتها من ضرائب مفروضة.

ثم إن الأوضاع الاقتصادية لهذه الناحية(إبراهيم حركات، 2009، ص88)، وتضافر مجموعة من العوامل السياسية والاجتماعية ساهمت بشكل كبير في قيام ثورات عارمة كدت تطيح بكثير من الأمراء، لو اللطائف الإلهية، ومن أبرز الثورات التي عصفت بالمنطقة خلال الفترة العلوية:

الترتيب	سنة الثورة	نوعها	متزعمها	مكانها	نهايتها
1	1171هـ	ثورة تأسيسية	أبي الصخور محمد العربي الخمسي	الأخماس الغمارية	تم ردعها وقتل أبي الصخور
2	1208هـ	ثورة اجتماعية	زيطان الخمسي	الأخماس الغمارية	تم قمع الثورة، وإرساله إلى جزيرة الصويرة
3	1241هـ	ثورة اجتماعية	أحد أفراد زيطان	الأخماس	قمعت من طرف محمد أشعاش
4	1893هـ	ثورة تأسيسية	الشريف الريسوني	تازروت	اقتيد مكبلا إلى جزيرة الصويرة.

الثورة الإصلاحية: لم تقتصر ثورة القبيلة الغمارية على الجانب الاجتماعي والاقتصادي فقط، بل تجاوز أفرادها هذا الأمر إلى المطالبة بالإصلاح الديني والأخلاقي، ومن أبرز الشخصيات التي لعبت دورا مهما في هذا الميدان واكتست صبغة محلية ووطنية الشيخ -عبد السلام ابن مشيش-، الذي قاد بمعية أهل منطقته حملة إصلاحية لاجتثاث مظاهر الخروج عن الأخلاق الإسلامية الدين.

وكان من خصائص هذه الثورة أنها كانت ثورة إصلاحية مست الإصلاح العميق للأخلاق الدنيئة التي سادت قلوب الناس في تلك المرحلة، وأيضا مظاهر الخروج عن الدين بعد قيام دعوة ابن أبي الطواجن بجبال غمارة.

وقد انتهى مطاف هذه الدعوة الإصلاحية بالشيخ عبد السلام ابن مشيش إلى الموت، حيث دس أبو الطواجن للشيخ من اغتاله سنة625هـ وضريحه معروف في جبل العلم بناحية غمارة(إبراهيم حركات، 2009، ص310)

ثورة تأسيسية: لم تسلم القبيلة الغمارية من رغبات البعض الذين طمحوا للوصول إلى السلطة، حيث أخذ البعض منهم مرادهم، فأقاموا دولا استمرت إلى قرون عديدة، كما هو الحال مع:

- حكام إمارة النكور بغمارة سنة (91هـ)(ابن خلدون، دس، ص251).
- دولة بني حمود ومواليهم بسبتة وطنجة من أعمال غمارة(ابن خلدون، دس، ص261).

كما أن بعضهم نجح في طموحه في إقامة كيان مستقل، فإن الكثير منهم لم ينجح في مسعاه وكان مصيره الموت على يد الجيوش المركزية، أو الإقامة على هوان بين نفود الدولة المنتصرة، كما هو الحال مع:

- سبع ابن مغندف الذي ثار بجبل تيزران ووصل إلى فاس وضرب السكة على نفسه(ابن خلدون، دس، ص281)، ثم انتهى به المطاف مقتولا على يد الجيوش الموحدية.
- ثورة الحاج اقراقوش وهو بربري ثار بجبال غمارة ضد الدولة السعدية، ثم ادعى الخلافة لنفسه، ثم ما لبث أن قضي على ثورته وقتل سنة 993هـ أو سنة: 996ه(إبراهيم حركات، 2009، ص274).

ثورة دينية (التنبي): بما أننا مررنا على مختلف أنواع الثورات التي مرت على القبيلة الغمارية أو التي تميزت بها، بقي لنا أن نشير إلى نمط آخر مهم من الثورات التي عصفت بالجبال الغمارية، ويتعلق بثورات اتخذت صبغة التنبي، واستحداث ملل جديدة قريبة نوعا ما للإسلام، ولما لا استنساخ لها، ويتعلق الأمر بثلاث شخصيات اشتهرت القبيلة باحتضانهم.

- حاميم المتنبي(الناصري، 2007، ص339):
- عاصم اليزدجمي(ابن خلدون، دس، ص288):
- أبو الطواجن الكتامي(ابن خلدون، دس، ص288):

وقد ترك هؤلاء بصمات واضحة على التاريخ الغماري تناقل المؤرخون بعضا من خصوصياتهم وتناس المؤرخون الكثير منها، إلا أن أهم ما وصل إلينا من آثارهم هي البدع التي استحدثوها إبان ثورتهم الدينية، فمثلا نجد كلا من حاميم المتنبي وأبي الطواجن الكتامي استحدثا دينا جديدا يشبه في تفاصيله الدين الإسلامي، إلا أنه في تكاليفه الشرعية مخفف، كما أن كلا المتنبئان وضعا قرآنا للتعبد، ترجم لحاميم بعض منه، ولم يصل لنا من قرآن أبي الطواجن أي شيء.

أما الأحكام الشرعية التي وضعاها فلم تكن تخرج عن نطاق الدين الإسلامي، بل كانت تتشابه في طريقة التعبد، وطريقة أداء المغارم على المخالفين، إلا أن ما ميز دعوة هؤلاء البربر هو أن دعوتهم وكتابهم كانا باللغة البربرية، والذي لم يصلنا من نسخه أي شيء، ولعله كان متداولا على الألسن أكثر من الأسفار، إلا أن وصول نسخة إلى الأندلس في تلك الفترة يطرح سؤالا محوريا، هل كانت لدعوة حاميم المتنبي مثل هذه الأهمية حتى يصل بالعلماء المطاف إلى ترجمة أعماله؟

أما شخصية عاصم اليزدجمي؛ فهي الشخصية الغامضة من بين هؤلاء الثلاثة، والتي لم يكلف ابن خلدون نفسه عناء الحديث عنها، بل اكتفى بإشارات تبرز أنها تركت سمعة طيبة في صفوف الغماريين، فقال واصفا حديثه عن هذه الشخصية" وكذلك تنبّأ منهم بعد ذلك عاصم بن جميل اليزدجومي، وله أخبار مأثورة، وما زالوا يفعلون السحر لهذا العهد"(عبد اللطيف حسني،، 1992، ص111).

بين الثورة والتنبي غابت حضارة أمة

لا شك أن قيام العديد من الثورات بين ظهران هذه الجبال سيؤدي إلى الكثير من الحروب الضخمة، وبالتالي سيذهب معها الكثير من الأثر الاجتماعي والأدبي والثقافي، و لك أن

تتلمس هذا الأمر بنفسك حينما تلاحظ التغير اللغوي والترابي والاثني الذي لحق بالقبيلة خلال القرون الخمس الأخيرة، وليس من المستبعد أن تكون هنالك عوامل أخرى ساهمت في اندثار كثير من الخصائص اللغوية والثقافية والعرقية لهذه التكتلات القبيلية إلا أنه من أهم هذه العوامل نذكر ما يلي:

الثورة المستمرة:

إلى اليوم لم تهدأ الثورات المطالبة بالتجديد والمساواة والعدل ووقف الظلم، في إشارة إلى الرفض المستمر للظلم في كل أشكاله، سواء كان مرتبطا بالسلطة المركزية (الحاكمة) أو السلطة المحلية (الوصية).

وقيام هذه الثورات واستعارها في مجالات ترابية متعددة جعل من السلطة تفكر كثيرا في طرق تحاصر بها هذه التكتلات القبلية المنتفضة التي وصلت في بعض الأحيان إلى تخوم فاس بل هددت أسوارها في مرات عديدة، لهذا نرى السلطة المركزية تقوم بحملات شديدة واستئصالية من أجل تأديب هذه القبائل ومنعها من الاعتداء على مجال نفود غيرها.

الهجرات العربية: لا شك أن الهجرات العربية التي وفدت على المغرب الأقصى كجزء من الانتقام لخروج المغرب الأقصى عن طاعة الفاطميين، كان له أثرا واضح في تغير البنيات القبلية للمغرب، وذلك بارز من خلال استيطان تكتلات قبلية عربية في السهول الخصبة، مما جعل السكان الأصلين يفضلون الهرب نحو الجبال على مزاحمة هؤلاء العرب في بيئتهم الجديدة.

وقد تأثر الغماريون كثيرا من هذه الهجرات العربية، فنزح الكثير من سكان سهول الهبط وسهول فاس وغيرها إلى المرتفعات المجاورة من أجل تجنب الصدام مع القبائل الوافدة التي عاثت في الأرض فسادا حسب أقوال المؤرخين.

ونزوح الساكنة الأصلية من أماكنها جعل من اختفاء حضارة دامت لقرون عديدة إلى مصافي النسيان والاحتضار أمرا محتما، بل أثرت هذه الهجرات أيضا حتى على التوزيع الجغرافي للتكتلات القبلية، فبرزت تكتلات قبلية جديدة ذات نزعة عربية قحة، كما هو الشأن عن قبائل القصر الكبير، وقبائل سهول نهر ورغة وغيرها، وتوسعت أخرى على حساب القبائل الأضعف.

التعريب: لا يشك أحد في أن تغير الأمم من ذاكرة تاريخية معينة إلى ذاكرة تاريخية أخرى يفقدها زخم الهوية ويلبسها لباسا غير لباسها، وهذا ما حدث مع القبيلة الغمارية رغم صمود بعض منها (بني بوزرة) أمام موجة التعريب التي لحقت القبائل الغمارية خلال الخمس قرون الأخيرة.

وفقدان قبيلة غمارة للسان الغماري جعل من فهم الكثير من ظواهرها القديمة أمرا عسيرا، ولما لا مستحيلا، وكل الأحداث التي دونت حول القبيلة لا تنم عن وصف دقيق للحركة الاجتماعية والأدبية والثقافية بها، بل هو في الغالب وصف لحملات فتح أو تأديب أو حكي عن تنبي أو ظاهرة جانبية.

وفقدان القبيلة الغمارية للموروث اللغوي من شأنه أن يلبسها لباسا غير لباسها الأصلي، وخصوصا حينما نتحدث على أصولها البربرية، ولسانها البربري، فأمام تعرب أغلب القبيلة

نجد أنفسنا أمام واقع يقول بعروبة القبيلة، وأمام واقع يهمش تاريخها الحافل بالأحداث والأمجاد الذي سطره هؤلاء البربر بمداد فخر واعتزاز على طول فترات مختلفة.

إن تظافر هذه العوامل المختلفة جعل من فهم تاريخ قبيلة غمارة الزاخر بالأدوار المهمة في تاريخ المغرب أمرا صعبا، يزيد من صعوبته قلة الاهتمام بهذا المجال الريفي النائي، وقلة المتدخلين في تنميته وإماطة سنين من الإهمال والإقصاء والتهميش المتعمد.

ثانيا: السياق التاريخي والسياسي لقيام ثورة زيطان الخمسي.

لقد طبع عهد المولى سليمان الكثير من الصراعات والفتن والاضطرابات منذ بدايته، ولتزامن هذا العهد مع التحولات التاريخية التي عرفتها أوروبا العقد الأخير من القرن الثامن عشر، والتي شكلت تطورا حاسما في سياق التاريخ البشري، فقد تميزت سياسة السلطان مولاي سليمان بمواجهة التوسع الأوربي من جهة، وبالعمل على تثبيت السلطة من جهة أخرى، وقد صادف ظهور الثائر الغماري –زيطان الغماري- ظروف كثيرة من أهما:

الظروف السياسية: بعد مقتل اليزيد ابن السلطان سيدي محمد العلوي ستتغير الحياة السياسية بالمغرب ومجتمعه، وستطفو عدة صراعات إلى السطح، كما أن المغرب سيعيش بعده صراعات قوية على النفوذ والسلطة من جهة، وعلى الفتن والقلاقل من جهة أخرى(ابن خلدون، دس، ص288).

فبمجرد وفاة السلطان المولى اليزيد ستظهر هذه الظروف العسيرة، وفي خضمها سيدعى السلطان المولى سليمان إلى الحكم، إذ بويع هذا السلطان مطلوبا لا طالب للسلطة، وسيمارس الحكم خلال فترة تمتد من سنة 1792م إلى سنة 1822م، أي لمدة ثلاثين سنة(عبد اللطيف حسني، 1992، ص111)، حول فيها سياسة البلد، إلى سياسة منغلقة نوعا ما على الخارج، وإلى سياسة إصلاحية ترنو إلى إصلاح تفشي العديد من المظاهر المغالية في التدين، وكان نتاج هذه السياسة انغلاق على المستوى الخارجي مما سيؤدي إلى إحراق الأسطول المغربي، وإلى الاصطدام مع الزوايا الرافضة لنمط الإصلاح والتوجه الجديد.

من جهة أخرى ستكثر الفتن والقلاقل أكثر في ربوع المغرب، وستبرز عدة كيانات قبلية ترفض الانصياع لتوجه السلطة في فرض الضرائب، كما ستمتنع أخرى عن أدائها، وفي المقابل سيكثر عدد الطامحين في السلطة من إخوة السلطان، لتتظافر كل هذه العوامل لتساهم في تشتيت جهد السلطان الجديد في توحيد البلاد وإعادة الاستقرار والأمن والأمان.

والغريب في الأمر أنه طرأ على السياسة الداخلية قبيل تنصيب مولاي سليمان عنصر جديد لم يشهده المغرب من قبل في ظل الحكم العلوي، وبرز هذا العنصر أكثر فأكثر، في ثورة الشمال واستمرار ثورة الحوز، وهذا العنصر هو تغذية الاضطرابات في الجهات المذكورة على يد الإسبان حتى يشغلوا المغرب عن الاهتمام بسبتة ومليلية ويحطموا بقايا الحركة الجهادية على ضعفها ضد السفن الأوربية(إبراهيم حركات، 2009، ص152).

أما فيما يخص قبائل الشمال ومناطقه، فإن الواقع يؤكد أنه وقبل سنة فقط من إرسال هذه الوثيقة التاريخية المهمة، ظهرت فتنة قبيلة غمارة -المشهورة- على يد زيطان الخمسي، حيث حدثت سنة 1208هـ ثورة بالشمال انطلقت من قبيلة الأخماس حتى تازة بزعامة زيطان

الخمسي كان يتردد على فاس، وكان العاهل قد ولى على غمارة التي منها الأخماس القائد الغنيمي(إبراهيم حركات، 2009، ص133).

كانت هذه الظروف السياسية وغيرها من أكثر ما ميز مرحلة حكم المولى سليمان، لتصاحبه إلى أن توفي. رحمه الله يوم: (13 ربيع الأول 1238هـ / 28 نونبر 1822م)، ودفن بضريح مولاي اعلي الشريف بباب أيلان بمراكش(بهيجة سيمو، 2011، ص92).

فلم تهدا الأوضاع المضطربة بعده أبدا، بل زادت مع ارتفاع حدة التدخل الاستعماري في شمال المغرب وجنوبه، لتنتهي بعد ذلك إلى احتلاله نهائيا بعد سنة 1936م، حينما انهارت أخر قلاع المقاومة وجيوبها في المغرب.

الظروف الاجتماعية والاقتصادية: أينما لحظات الصراع والتفلت الأمني تجد المعاناة والمأساة الإنسانية، هكذا كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في المغرب خلال بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، فبمجرد اعتلاء المولى سليمان سدة الحكم ستبرز للسطح مجموعة من القلاقل والفتن الداخلية ستعصف بأمن الدولة من جهة وباقتصادها التقليدي وأوضاعها الاجتماعية الرثة أصلا.

وسيزيد من أثر هذه الأزمات الاجتماعية سياسة المولى سليمان، الذي يبدو أنه كان مصرا على نشر سلطته ونفوذه المادي في جميع أرجاء المغرب(عبد اللطيف حسني، 1992، ص123)، مما سيؤدي به إلى تشتيت جهوده في الدفاع عن وحدة البلاد في إعادة لملمة ولاياته الثائرة بين الفينة والأخرى، لتجعل من مهمته أمرا شبه مستحيل وخصوصا أن الثورات لم تكن تهدأ، فما إن يقوم السلطان بحملة بني موسى وآيات عتاب ورفالة وبني عياط، حتى يعلن حلف قبلي جديد(قبيلة ايت مالو ووردیغة وقبائل البربر) العصيان(عبد اللطيف حسني، 1992، ص123).

وفي المقابل كان السلطان واعيا بضرورة التخفيف من الضرائب التي كانت ترهق كاهل سكان القبائل وخاصة الفقيرة منها، لهذا أسقط السلطان مولاي سليمان المكس على الرعايا، غير أن الواجبات الشرعية، من زكاة وأعشار لم يكن مستعدا للتنازل عنها(عبد اللطيف حسني، 1992، ص123).

الظروف الخارجية: تميزت فترة حكم المولى سليمان كما قلنا بحركة تغيرية عميقة من طرف السلطان مولاي سليمان، همت الجانب الديني والسياسي والعسكري والاقتصادي، فقد كان تأثر السلطان بالحركة السلفية الوهابية في المشرق من أبرز الأمور التي جعلته يخوض حربا صارمة على بعض الزوايا التي تنهج في تصوفها مغالاة في الطقوس والتعبد.

أضف إلى ذلك نهجه الجديد مع الجانب الأوربي والقائم على سياسة الاحتراز والانغلاق، وذلك ناتج عن تخوفه من التأثير الأجنبي سواء الثقافي أو الديني، وهذا ما جعله يأمر بإحراق الأسطول المغربي البحري، إلا أنه ورغم النوايا الطيبة التي كانت وراء إحراق الأسطول، إلا أنه ترتب عنه خسارة كبيرة في هذا المجال، ومكن أيضا من تراجع المغرب سنوات إلى الوراء.

إلا أنه وبسبب التحولات التاريخية التي عرفتها أوروبا خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر، والتي شكلت تطورا حاسما في سياق التاريخ البشري(عبد اللطيف حسني، 1992،

ص9)، فقد كانت قوة التدخل في الشؤون المغربية ضعيفة بالمقارنة مع ما سيأتي، بل كان المغرب فاعلا مهما في بعضها، وخصوصا أن المغرب كان قوة لا بأس بها في تلك المرحلة. أما من الناحية الدفاعية، فقد تميزت سياسة المولى سليمان في مواجهة القوى الاستعمارية على مواجهة كل رغبة في التوسع لدى القوى الأوربية، سواء تعلق الأمر بالتدخل المباشر وغير المباشر في السياسة العامة للبلاد، أو فيما يخص بالهجومات المتكررة على الثغور والبلدان الإسلامية.

ثالثا: شخصية الثائر زيطان الغماري وملامح من ثورته.

شخصية زيطان الخمسي (الغماري): ليس لنا معلومات مهمة حول شخصية الثائر الغماري زيطان الخمسي، الذي شغل بثورته قلوب الغماريين وعقول حكام البلاد في تلك الفترة، لكننا سنحاول أن نبين أثر هذا الثائر من خلال ما توفر لدينا من معلومات مدونة.

اسمه: هو محمد بن عبد السلام زيطان الخمسي مولدا الغماري انتماءا (إبراهيم حركات، 2009، ص134)، يعتبر من صلحاء المنطقة وكبار العلماء بها، اشتهر بالصلاح والزهد، وكانت قبيلة الأخماس الغمارية تعتقد في بركته وبركة سلالته(إبراهيم حركات، 2009، ص134).

أسرته: ينتمي زيطان الخمسي الغماري إلى أسرة شريفة كبيرة، توارثت العلم والاحترام والتأثير على الغماريين، الذين عرفوا منذ القدم باحترامهم لأهل البيت والدفاع عنهم، كما عرفوا أيضا بطلب العلم والاشتغال به، وما تزال القبائل الغمارية إلى اليوم تهم اهتماما كبيرا بتدريس القرآن وتعليمه لأبنائها.

وتشبث هؤلاء الأخماس –الغماريين- بآل بيت زيطان ليس له حدود، حيث ما يزالون حسب الناصري وَإِلَى الْآن لَا زَالَ أهل الْأَخْمَاس يستنصرون بحفدته ويعتقدون فيهم مَا تعتقده آيت ومالو فِي آل مهاوش(الناصري، 2007، ص95).

مساره التعليمي: حسب الناصري، فإن محمد بن عبد السلام زيطان الخمسي كان طالبا(الناصري، 2007، ص95)، وفي عرف أهل جبال غمارة أن الطالب هو من حفظ القرآن وتعلم مبادئ علومه، وربما يكون قد تعمق في أجزاء مهمة منها، إلا أن تأثر أجزاء مهمة من بلاد غمارة بثورته يشير إما إلى زهد وورع تحلى به هذا الأخير فجعل منه إنسانا يحظى بالثقة والاحترام والقدوة، أو أنه يمكن أن يكون حقا قد تعمق في العلوم القرآنية والحديثية، وخصوصا إذا علمنا أنه كان يتردد على فاس(إبراهيم حركات، 2009، ص134)، وبالتالي لا يستبعد أن يكون قد تلقى علوما على كبار فقهاء فاس في زياراته المتكررة لها.

مقتل الصرايدي واضطراب الأوضاع في جبال غمارة: لقد كانت الأوضاع مهيأة في جبال غمارة لقيام ثورات محتدمة، والسبب في ذلك يرجع إلى توالي الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على بلاد المغرب في تلك الفترة، وهذا ما أدى إلى -الخارج.

أسباب ثورة زيطان الخمسي: كَانَ الْقَائِد قاسم الصريدي الغماري واليا بنَّاحِيَة غمارة وقبائلها المحيطة أَيَّام الْمولى يزِيد رَحمَه الله فَلَمَّا بُويِعَ الْمولى سُلَيْمَان ولى على تِلْكَ النَّاحِيَة الْقَائِد

الغنيمي الْمُتَقَدّم الذّكر وَكَانَ عسوفا فِيمَا قيل فَقبض على الْقَائِد قَاسم واستصفى أَمْوَاله وَبث عَلَيْهِ الْعَذَاب كي يظْهر مَا بَقِي عِنْده حَتَّى هلك فِي الْعَذَاب(الناصري، 2007، ص95).

ثورة محمد زيطان الخمسي : مباشرة بعد اضطهاد الغتيمي للقائد الصريدي والفتك به عن طريق التعذيب نهض زيطان الخمسي الغماري ثائرا في جبال غمارة ضد ظلم القائد وطغيانه، فاجتمعت عليه سماسرة الفتن من كل قبيلة وكثر تابعوه وكان السبب في ثورته أن القائد قاسما الصريدي كان واليا بتلك الناحية أيام المولى يزيد رحمه الله فلما بويع المولى سليمان ولى على تلك الناحية القائد الغنيمي المتقدم الذكر وكان عسوفا فيما قيل فقبض على القائد قاسم واستصفى أمواله وبث عليه العذاب كي يظهر ما بقي عنده حتى هلك في العذاب.

ثار زيطان، واجتمعت عليه الغوغاء من أهل تلك البلاد ولما شرى داؤه بعث السلطان بجيش إلى القائد الغنيمي وأمره أن يقصد زيطان وجمعه فزحف إليه ببلاد غصاوة قرب وازان وأوغل في طلبه فنهاه من معه من رؤساء الجيش عن التورط بالناس في تلك الجبال والشعاب فلج واقتحمها بخيله وراميته ولما توسطها سالت عليه الشعاب بالرماة من كل جانب وهاجت الحرب وأحاط العدو بالجيش فقتلوا منهم وسلبوا كيف شاؤوا وردوهم على أعقابهم منهزمين ولما اتصل خبر الهزيمة بالسلطان اغتاظ وقبض على الغنيمي ومكن منه أولاد قاسم الصريدي فباشروا قتله بأيديهم واقتصوا منه بأبيهم وولى على قبائل الجبل أخاه المولى الطيب وفوض إليه أمر الثغور وأنزله طنجة(الناصري، 2007، ص95).

ولم تنتهي حكاية الثائر المنتصر على جيوش المخزن هنا، بل ستمتد إلى حوادث أخرى، فبمجرد انهزام جيوش المخزن وتراجعها، جهز المولى سليمان جيشا آخر أقوى، فحارب أهل حوز طنجة وآصيلا من بني يدير والأخماس من أصحاب زيطان فكانت الحرب بينهم سجالا(الناصري، 2007، ص95).

وبعد هذا الدعم المرسل من طرف السلطان المولى سليمان سيكون للمعارك بين قوات المخزن والقبائل الجبلية المناصرة لثورة زيطان أمر أخر، فلما دخلت سنة تسع ومائتين وألف أمد السلطان أخاه المولى الطيب بجيش وافاه بطنجة فخرج منها ومعه عسكرها وعسكر العرائش وصمد إلى بني جرفط عش الفساد ونزل على بلادهم وقاتلهم في عقر ديارهم فقتل مقاتلتهم وأحرق مداشرهم وانتهب أموالهم ومزقهم كل ممزق فجاؤوه خاضعين تائبين فعفا عنهم ثم تقدم إلى بني حرشن من بني يدير على تفيئة ذلك ففر الثائر زيطان إلى قبيلته بالأخماس وتسللت عنه القبائل التي كانت ملتفة عليه(الناصري، 2007، ص96).

مصيره ووفاته: بعد انهزام زيطان الخمسي في معاركه ضد سلطة المخزن وتيقنه من استحالة مقاومتها، فكر في الاستلام وطلب العفو من السلطان، فاستنزله المولى الطيب بالأمان فظفر به وبعث به إلى السلطان فأمضى له أمانة و ولاه على قبيلته وصار من جملة خدام الدولة ونصحائها إلى أن ملك زمامها وتعين غيره للقيام بأمرها فأخر ونقله السلطان إلى تطاوين فسكنها ورتب له بها ما يكفيه.

واستمر القائد في خدمة الدولة، واستمرت حياته إلى أواخر دولة السلطان المولى سليمان، ولما خرج عليه المولى إبراهيم بن يزيد ودخل تطاوين كانت لزيطان هذا في التمسك بدعوة السلطان اليد البيضاء، وأغنى غناء جميلا في تثبيت تلك القبائل وتسكينها، ثم وفد على

السلطان بطنجة سنة ست وثلاثين ومائتين وألف وقد طعن في السن فأحسن إليه غاية الإحسان(الناصري، 2007، ص96).

ولم يؤرخ المؤرخون إلى سنة وفاته بالضبط، إلا أنها يحتمل أن تكون في هذه السنين الأخيرة (1236هـ) التي تلت زيارته للسلطان في مدينة طنجة، لأن المصادر ذكرت أن زيارته للسلطان كانت في مراحل متأخرة من عمره.

حضوة زيطان المصلح بين القوم والسلطة: لم تكن ظاهرة الإصلاح في جبال غمارة تقتصر على سلطة الدولة وعلمائها التابعين، بل كانت تتجاوز ذلك إلى علماء ينبغون من داخل الوسط الغماري، فينادون العامة إلى إصلاح ذات البين والابتعاد عن مظاهر الجاهلية من اقتداء مفرط بالموروث السحري وتميع ملحوظ في الأخلاق واللباس وكذا الاختلاط المحرم.

فثورة المصلح زيطان الخمسي فكانت رد فعل على ظلم وتجبر القائد الغنيمي، فهي رد فعل طبيعي على فساد القادة القبليين واستعمالهم للقوة المفرط اتجاه الرعية، وهذا ما استوجب تدخلا من السلطة المركزية، فكان نتاج هذه الحركة تغييرا في سياسة التعامل مع القبيلة وثأرا لأبناء المقتول للقاتل وتعيين أحد أبنائه قائدا على القبيلة الغمارية، وبالتالي فإن هذا النموذج الإصلاحي كان يحظى بالحظوة والاحترام والتقدير من طرف السلطة رغم محاربته من طرف جيوش المخزن، وذلك لأن هدفه من حركته كان نبيلا ولم يكن ذا أطماع مبيتة كسابقيه.

وإلى الآن لا زال أهل الأخماس يستنصرون بحفدته ويعتقدون فيهم ما تعتقده آيت ومالو في آل مهاوش(الناصري، 2007، ص96)، وهذا التقديس للعامة من قبائل غمارة لهؤلاء الحفدة يعني أن حظوتهم كبيرة لدى الغماريين، وما مناصرة القبائل الغمارية في معاركه ضد السلطة لأكبر دليل.

الوعي بالوضعية الاجتماعية المزرية للقبيلة ومقاربة غض الطرف (مولاي عبد الرحمان ابن هشام).

ليس كل الملوك كانت لهم نزعة إستئصالية محضة، بل وعى البعض منهم أن منطقة غمارة منطقة هامشية وعرة المسالك فقيرة الموارد، تحتاج إلى الكثير من العناية، كما تحتاج إلى تخفيف الضرائب والأتوات المفروضة عليها، وتكثيف الجهود الذكية من أجل تسخير ولات كفؤين لتسيير مناطقها.

ومن أبرز هؤلاء السلاطين اللذين استشعروا هذا الجانب الحساس من قضية هؤلاء الساكنة المولى عبد الرحمن ابن هشام العلوي، حيث أدرك مولاي عبد الرحمان رحمه الله أن وضعية غمارة من الجهة الاقتصادية والاجتماعية تتطلب أكثر ما يمكن من المرونة وحسن الإصغاء إلى متطلباتهم، حتى إن ولاية غمارة أسندت مرارا إلى عامل تطوان المذكور وعزل عنها مرارا ليتولاها أشخاص يرشحهم السكان ثم سرعان ما يضيقون بولايتهم(إبراهيم حركات، 2009، ص176).

وتفكير المولى عبد الرحمان ابن هشام بهذه الطريقة يؤكد على أن تعامله مع متغيرات بلده وأحوال ساكنته جعلته يغض الطرف عن كثير من تجاوزات بعض الساكنة، وذلك للأوضاع الإنسانية التي كانت تتخبط فيها هذه المناطق، وبالأخص في فترات الجفاف والحروب

والقحط، وبالتالي يكون التعامل على مبدأ حسن الإصغاء، وحسن التعامل، وكذلك تنفيذ بعض متطلبات الساكنة المعقولة، ومن جهة أخرى يدل هذا على أن ثورة قبائل غمارة هي جذور ثورة اجتماعية محضة، وأنه رغم بروز بعض الانتفاعيين منها، إلا أن الوضعية التي وصفها الجغرافيون لهذه المناطق تؤكد الحالة المزرية التي كانوا يعيشونها، وبالتالي لا نستغرب من حكمة المولى عبد الرحمان في التعامل الدقيق مع هذه المنطقة التي كانت العيون الإسبانية وغيرها موجهة نحوها وبشكل شديد.

وتعامل هذا الخليفة المصلح الحداثي مع سكان هذه المنطقة وبهذه الحكمة البالغة، ينم عن روية وحسن تسيير كبيرين، كما يظهر جانبا من التعامل الإنساني مع كل المناطق، ويبين أن العمل العسكري كان أخر الحلول في ذهن هذا الداهية المصلح، فلهذا نجده يوصي العامل برعايتهم، وعند الاقتضاء بالتعاون الصادق مع من يوليه العاهل برغبة منهم(إبراهيم حركات، 2009، ص176).

ويعتبر المولى عبد الرحمان ابن هشام من كبار السلاطين العلويين المتأخرين اللذين ساهموا وبشكل كبير في إعادة الاعتبار للدولة المغربية، وساهموا أيضا في الدفاع عنها رغم ضعف موارد الدولة المغربية وكثرة الحروب، وتكالب كل القوى الاستعمارية على تقسيم المغرب.

كما يرجع له الفضل أيضا في تأديب الكثير من القبائل المتمنعة عن أداء الضرائب والزكاة، والقبائل المتمردة الخارجة عن إمرة السلطة المركزية، فكان عهده وبكل فخر عهد استرداد بعض الهيبة للوطن رغم المكاره التي كانت تحيط بالبلاد من كل جانب، وجهوده الطيبة في هذه الأرجاء المترامية سطرت بمداد الفخر والاعتزاز، زاد من وقعها صموده الكبير في وجه القوى الاستعمارية المسعورة.

خاتمة:

وخلاصة القول، أن ثورة الثائر الغماري ما هي إلا رفض مستمر للظلم، ونأي صريح عن أسبابه ومضامينه، وحتى وإن تضررت الدولة من هذه الثورة داخليا فيما يخص ازدياد النفقات المقررة في ترتيب هذه المحملات ومواجهة مثل هذه التفلتات، إلا أن هدف الثائر كان في بدايته هدفا نبيلا يستجدي الدفاع عن المظلومين ورفع ضرر الظالمين، وما تأديب السلطان للقائد الغنيمي ومصادرة أمواله واقتصاص أبناء القائد الهالك الصريدي إلا أكبر دليل على هذا الأمر.

وإلى جانب ذلك نأخذ من السلطة حكمة في التعامل مع الثائرين والعفو عنهم في كثير من المواقع، ليكلل هذا العفو ببسط للنفوذ والسلطة في هذه الجبال النائية إلى فترات متأخرة كانت السلطة نفسها من أكبر المستفيدين منه، وذلك بسبب الأوضاع السياسية التي اضطربت بعد ذلك ولم تهدأ، فكان بلسم خير جنب البلاد أزمات أخرى لم تكن في حاجة لها أصلا.

قائمة المراجع.

1. إبراهيم حركات(2009)، المغرب عبر التاريخ، ج3، الدار البيضاء، منشورات دار الرشاد الحديثية.
2. ابن خلدون(دس)، تاريخ ابن خلدون، ج6، بيروت، منشورات المكتبة العلمية.

3. بهيجة سيمو(2011)، البيعة ميثاق مستمر بين الملك والشعب، منشورات مديرية الوثائق الملكية، الرباط، المغرب.
4. عبد اللطيف حسني(1992)، أعمال ندوة جامعة مولاي اعلي الشريف الخريفية (الدورة الرابعة)، منشورات مطبعة الأماني، الرباط ، المغرب.
5. لناصري(2007)، الاستقصاء، ج1، اعتنى به محمد عثمان، منشورات دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان.
6. محمد داود(2008)، (المسارة) تاريخ تطوان، مراجعة حسناء داود.